الرّحالة الجزائريون خلال العهد العثماني:
دراسة مقارنة بين رحلتي عبد الرزاق بن حمادوش وأبي راس الناصري

دة./ نادية فتيسي

قسم التاريخ/ جامعة عبد الحميد مهري– قسنطينة2

nadiafetici@yahoo.fr

الملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية دراسة مقارنة بين رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال ورحلة أبو راس الناصري المسماة: "فتح الإله ومتنه في التحدث بفضل ربي ونعمته". وأردنا من خلال هذا البحث التعرف على أهمّية الرحلتين باعتبارهما من الأعمال النادرة التي وصلت إلينا في فن الرحلة من العصر العثماني الذي عرف بالجمود والتخلف الفكري، والإشكالية التي سنحاول الإجابة عنها من خلال هذه الدراسة هي:

هل الرحلات العلمية خلال العهد العثماني كانت دائما نحو بلاد الحجاز أم أنها كانت متنوعة الاتجاه والأغراض؟ وتندرج تحت هذه الإشكالية عدة تساؤلات فرعية أهمها:

- ما هو غرض واتجاه رحلتي عبد الرزاق ابن حمادوش وأبو راس الناصري؟
- ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين الرحلتين؟
- ما هي نتائج الرحلتين؟

وقد قسمنا بحثنا إلى عنصرين ومقدمة وخاتمة حيث عرفنا في العنصر الأول بالشخصيتين والرحلتين وأبرزنا في العنصر الثاني أوجه التشابه والاختلاف بينهما من حيث الجوانب التي رصداها من أحداث السياسية ومظاهر الاقتصادية والمناظرات العلمية وعادات اجتماعية ....

الكلمات المفتاحية: الرحالة؛ ابن حمادوش الجزائري؛ أبي راس الناصري؛ الجزائريون؛ العهد العثماني.

Resumée:

Cette recherche a pour objectif l'étude comparative entre le voyage d'Iben Hamadouche nommé: «Lissan Elmakal Fi Ennaba An Enassab Wa El Hassab Wa El Hal»; Et Le Voyage D'Abou Rass Enassiri nommé: «Fath El Ilah Wa Matnihi Fi Etahadoth Bifadli Rabi Wa Nimatihi». Ces deux voyages sont considérés parmi les plus rares travaux qui nous parviennent sur l'art du voyage de l'époque ottomane qui se caractérisé par l'inertie intellectuelle.

Le voyage d'Iben Hamadouch avait un objectif commercial et scientifique, vers le Maroc ; cependant le voyage d'Abou Rass avait un objectif religieux et scientifique vers El Hihidjaz. Ces deux voyages ont enregistré des stations géographiques, des évènements politiques, des débats scientifiques, des coutumes sociales, des aspects économiques..., spécifiques pour chaque région.

مقدمة:

ساهم علماء الجزائر في كتابة الرحلات خلال العهد العثماني لاسيّما في القرن الثاني عشر هجري الثامن عشر ميلادي، وكانت بعضها دينية تهدف إلى أداء فريضة الحج وبذلك تكون رحلات حجازية وبعضها تتجه إلى المراكز والجامعات الكبرى وبذلك تكون رحلات علمية، وهناك من جمع بين أكثر من غرض في رحلته فاختار أداء فريضة الحج وطلب العلم في نفس الوقت أو التجارة وطلب العلم. ومن أمثلة ذلك رحلتي ابن حمادوش المسماة: "**لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والمال**"، ورحلة أبو راس الناصري الموسومة بـ: "**فتح الإله ومتنه في التحدث بفضل ربي ونعمته**"، حيث قام الأول برحلة علم وتجارة إلى المغرب الأقصى وبينما الثاني أدى رحلة حج وطلب علم إلى بلاد الحجاز.

أردنا من خلال هذا البحث التعرف على أهمية الرحلتين باعتبارهما من الأعمال النادرة التي وصلت إلينا في فن الرحلة في عصر عرف بالجمود والتخلف الفكري. والإشكالية التي سنحاول الإجابة عنها من خلال هذه الدراسة هي:

هل الرحلات العلمية خلال العهد العثماني كانت دائما نحو بلاد الحجاز أم أنها كانت متنوعة الاتجاه والأغراض؟ وتندرج تحت هذه الإشكالية عدة تساؤلات فرعية أهمها:

- ما هو غرض واتجاه رحلتي عبد الرزاق ابن حمادوش وأبو راس الناصري؟
- ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين الرحلتين؟
- ما هي نتائج الرحلتين؟

تعتبر الرحلة ضرورية في كل زمان لطلب العلم لاكتساب الفوائد وتنمية المواهب وهي بالنسبة للطالب الذي تيسرت له الظروف مفخرة يعتز بها لكثرة فوائدها[1]، من زيادة المعرفة ولقاء العلماء وتحصيل العلوم من مصادرها واقتناء أمهات الكتب والتآليف النادرة، وهناك من العلماء من اعتبر الرحلة ضرورة واجبة في حق طالب العلم لاكتساب المعارف وتصحيح المصطلحات عن طريق اللقاء المباشر مع كبار العلماء، وعلى رأسهم العلامة ابن خلدون الذي خصص في مقدمته الشهيرة فصلا حول الرحلة العلمية سماه:" الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيّخة مزيد كمال في التعليم:؛ وأهم ما ذكره حول الموضوع:" **الرحلة لابد منها في**

1- مصطفى مهروس، المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، مطبعة فضالة، المغرب، 1997، ص. 90.

طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيمّ"[1].

ولذلك احتل الجانب العلمي في الرحلات الجزائرية حيّزا كبيرا في كتابة الرحالة[2]، فسواء كانت رحلة حجازية أو تجارية، كانوا يخصصون جلّ أوقاتهم في طلب العلم ونسخ واقتناء الكتب، والبحث عن أشهر العلماء، أينما حلّوا يجلسون للأخذ منهم ويتبادلون المعارف ويتلقون الإجازات العلمية. ورحلتا ابن حمادوش وأبو راس الناصري تندرجان ضمن هذا الإطار.

أولا: التعريف برحلتي ابن حمادوش وأبو راس الناصري

1- رحلة عبد الرزاق ابن حمادوش المسماة: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال".

أ- ترجمة لابن حمادوش الجزائري:

ولد عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري بمدينة الجزائر سنة (1107هـ/1695م)، في أسرة ميسورة الحال تمتهن الدباغة، نشأ وتعلم في مدينته العلوم الشرعية من فقه وأدب وتصوف وتوحيد، وتقلد بعض الوظائف الدينية[3]، ثم اشتغل بالتجارة فكان يمتلك دكانا للأقمشة بمدينة الجزائر كما ذكر في رحلته[4].

وفي العشرينيات من عمره راح يجوب العالم الإسلامي حيث بدأ برحلة الحج سنة 1130هـ/ (1717-1718هـ)[5] ثم سافر إلى المغرب الأقصى والمشرق في مناسبات أخرى، لم يكتف ابن حمادوش بالعلوم الشرعية فحسب بل اعتنى بدراسة الحساب والطب والفلك، وكان اهتمامه بالعلوم العقلية هو ما يميزه عن باقي معاصريه، ويعتبره كارل بركلمان عالم

1- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، تحقيق، أ. م. كاتر مير، المجلد3، مكتبة لبنان، بيروت، 1992، ص-ص.266-267

2- حنيفي هيلايلي، الجزائريون والرحلة الى الحجاز على ضوء رحلتي الورتلاني وأبو راس الناصري، مجلة الشهاب الجديدة، مجلد7، العدد7، السنة 7، جامعة سيدي بلعباس، 2008، ص.22

3- عبد الرزاق ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش المسماة:" لسان المقال في النّبأ عن النّسب والحَسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 ، ص. 9-11

4 -عبد الرزاق ابن حمادوش، المصدر نفسه، ص. 114

5- Gabriel,Colin, A.bderrezaq El-jezairi, un médecin arabe du XII siècle de l'Algérie, Imprimerie Delord.(-Boehm et martial éditeurs du Montpellier médical, Montpellier, 1905,p34.

حساب وفلك وطبيبا، وذكر أنه توفي في حوالي 1170هـ/1756م[1]، بينما يذكر أبو القاسم سعد الله أنه عاش إلى حوالي تسعين سنة، وأنه توفي في مكان وتاريخ مجهولين، ولكن أغلب الظن أن المنية وافته وهو بالمشرق بين سنوات (1197هـ/1783 م، و1200هـ/1786 م)[2].

غلب الطابع العلمي على مؤلفات ابن حمادوش نظرا للعدد الكبير من مؤلفاته في الطب والصيدلة والحساب ومنها: كتابه الذي ذكره كارل بركلمان المسمى: "**الجوهر المكنون في بحر القانون في الطب** " وقد طبع قسم خاص بالصيدلة يحمل عنوان: "**كشف الرموز في بيان الأعشاب**" [3]، وكتاب آخر في الطب يحمل بعنوان " **تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج**" ألفه ابن حمادوش خلال رحلته للحج بمدينة الرشيد بمصر سنة 1161هـ/1748م[4]. كما ألف كتاب في الحساب بعنوان: "**بغية الأديب في علم التكعيب**" الذي أتمه سنة 1143هـ/ 1731 م.

ب- التعريف برحلته:

قام بتحقيقها الأستاذ المرحوم أبو القاسم سعد الله في مدة طويلة تجاوزت العشر سنوات، معتمدا على نسخة مخطوطة وحيدة محفوظة بخزانة العامة بالرباط في 278 صفحة، وهي قسم من الجزء الثاني أما بقية الأجزاء فيه مفقودة، وقد بدأ حمادوش رحلته في سنة 1156هـ/ 1743م وانتهت في الثالث جمادى الأولى 1160هـ آخر أفريل أول ماي 1747م. والرحلة تطبق على جزء فقط من المخطوطة أي على الجزء الخاص برحلته إلى المغرب الأقصى وهو من الصفحة 3 إلى الصفحة 75، وهو الجزء الذي قامت عليه دراستنا، أما الباقي فتحتوي على موضوعات كثيرة غير مترابطة: مذكراته اليومية وحياته العائلية وأخبار الولاة وبعض العادات والتقاليد في مدينة الجزائر ومؤلفاته[5].

1- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، دار المعارف، مصر، 1975 ، ص.86، 87.

2-عبد القادر فاكايري، عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بـ"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، موقع بن باديس، الاثنين28 مايو، 2018، https://binbadis.net/archives/7466

3 -كارل بركلمان، المرجع السابق، ص.87.

4 -عبد القادر فاكايري، المرجع السابق .

5-عبد الرزاق ابن حمادوش، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص. 13

اعتمد ابن حمادوش في كتابة رحلته على دقة ملاحظته واهتمامه بطبائع الناس وغرائب الأشياء، وسجل رحلته بأسلوب بسيط في تعابيره بعيدا عن التنمق اللفظي والسجع المتكلف المنتشر في ذلك العصر[1].

وتعتبر رحلة ابن حمادوش من الرحلات القليلة التي وصلت إلينا من العهد العثماني، كما أنها جزء من التراث الجزائري العربي والإسلامي لا يمكن للباحث الاستغناء عنه في التعرف على أوضاع الجزائر والمغرب الأقصى خلال للقرن الثاني عشر الهجري/القرن الثامن عشر الميلادي بالرغم من كثرة الاستطرادات بها.

2- رحلة أبو راس الناصري المسماة "فتح الإله ومتنه في التحدث بفضل ربي ونعمته"

أ- ترجمة لأبي راس الناصري:

ولد محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف الجليل، الراشدي قبيلة والمعسكري بلدة سنة 1150هـ/ 1737م، من أسرة علم ودين وتصوف غير أنها لم تكن ميسروة الحال، فقد والديه منذ الصغر فكفله أخوه عبد القادر، ورحلا إلى تلمسان وهناك حفظ القرآن الكريم وأحكامه عن ظهر قلب[2]، ثم انتقل إلى مازونة لدراسة الفقه واللغة والحديث على يد علمائها ومنها رحل إلى مدينة معسكر ولم يتجاوز الخامسة عشر سنة فدرس على فقهائها مختصر خليل وحفظه عن ظهر قلب وفهمه معنى ولفظ في مدة ثلاث سنوات[3]، كما واصل دراسة الفقه على يد الشيخ عبد القادر المشرفي بضاحية معسكر[4]، وبعد ان شعر بنوع من الاستقلال تولى القضاء في الريف لمدة سنتين وتزوج هناك ثم عاد إلى معسكر واشتغل بتدريس الفقه لمدة 36 سنة دون انقطاع في مسجد العين البيضاء بمعسكر وذاع صيته إلا أن تجاوز عدد طلابه السبعمائة طالب.[5]

1- عبد الرزاق ابن حمادوش، المصدر نفسه، مقدمة المحقق، ص.22

2- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص. 19-25

3- أبو راس الناصري، المصدر نفسه، ص. 19

4 - المصدر نفسه، ص. 24

5- محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ قسنطينة)، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، 1400هـ /1980م، ص.199.

عرف أبو راس الرحلة منذ الصغر وتنقل بين عدة مدن في الجزائر وقام برحلتين إلى الحجاز في حياته لأداء فريضة الحج، وقد زار خلالهما مصر والشام وفلسطين، وبعد عودته إلى موطنه من رحلته الأخيرة اشتغل بالتأليف إلى حين وفاته سنة 1238هـ/ 1824م[1]، وترك عددا من الكتب في التاريخ والنسب والسيرة وأشهرها عجائب الأسفار ولطائف الأخبار،[2] وكان مدافعا على السلطة العثمانية الحاكمة ومواليا لها وحسب الأستاذ محمد غالم إن غايته لم تكن التقرب والتزلف للحكام وإنما بل لموقف نابع من السياسة الشرعية التي ترفض الفتن والقلاقل والخروج على الحكام[3].

ب- التعريف بالرحلة:

قام الأستاذ عبد الكريم الجزائري بتحقيقها معتمدا في ذلك على ثلاث نسخ: النسخة الأولى محفوظة بالخزانة العامة بالرباط والثانية هي ملك الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الجزائري والثالثة للشيخ أحمد جلول البدوي بضواحي معسكر.[4]

إن رحلة أبي راس هي تسجيل لرحلتين قام بهما إلى الحج يفصل بينهما مدة عشرين سنة، عنيّ فيها بتدوين كل الجوانب، وخاصة العلماء الذين اتصل بهم في المدن التي زارها والدروس التي حضرها، والشيوخ الذين استجازهم، ويرى الأستاذان أبو القاسم سعد الله وعبد القادر بكاري أن رحلة أبو راس هي رحلة علمية أكثر منها دينية[5]،وقد قسم أبو راس كتابه إلى خمسة أبواب فكان الباب الأول متعلقا بحياته، ونسبه وسماه في ابتداء أمري، والباب الثاني في ذكر شيوخه في حين خصص الباب الثالث للحديث عن رحلته وهو الجزء المهم بالنسبة إلى موضوعنا وكان الباب الرابع خاصا المواضيع التي نوقشت في مجالس العلم

1- سميرة انساعد، الرحلة إلى المشرق في الادب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى ، الجزائر، 2010، ص. 70-71

2- أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق وتقديم: محمد غالم، منشورات المركز الوطني للبحث في الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005.

3- أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص. 15

4- أبو راس الناصري، متن الإله...، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص. 12

5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص.407/ بكاري عبد القادر، الرحلة ودورها في التدوين التاريخي الجزائري، رحلة أبو راس الناصري نموذجا.مجلة عصورالجديدة، العدد 19-20، جامعة وهران، 2015، ص. 222

بحضورها أما الباب الخامس والأخير فهو فهرسة للكتب التي ألفها مع ذكر ملخص عن كل منها.

اعتمد أبو راس في رحلته على المشاهدة والملاحظة فهو له قدرة كبيرة في معاينة كل ما يقع عليه عينيه وتسجيل ما يجده جديدا أو غير مألوف وخاصة المسائل والقضايا التي تطرح في المناظرات مع العلماء معتمدا على ذاكرته القوية.[1] قلد أبو راس في تأليفه "**فتح الإلـه**" قدوته "جلال الدين السيوطي" في كتابه " **نـزول الرحمـة فـي التحـدث بالنعمـة الشـاملة**"[2]، ومن بين المصادر التي اعتمد عليها تآليف الرحالة السابقين مثل رحلة الورتلاني، و"الرحلة الناصرية" لأحمد الدرعي، و"ماء الموائد" لأبي سالم العياشي[3].

ثانيا: أوجه التشابه والاختلاف بين الرحلتين

كلتا الرحلتين انطلقتا من إيالة الجزائر خلال القرن الثاني عشر هجري الثامن عشر ميلادي، ولكن تختلف رحلة أبي راس الناصري عن رحلة ابن حمادوش من حيث الاتجاه والغرض والتاريخ، وتتفقا معا في الغاية والهدف وهي الاستزادة العلمية والالتقاء مع الشيوخ وأخذ العلم من منابعه؛ فرحلة ابن حمادوش كانت بحرا من مدينة الجزائر في 20 ذي الحجة 1155هـ الموفق ل 4 فيفري 1743م إلى تطوان، مكناس ثم فاس ومنها عاد إلى تطوان ثم ركب البحر إلى مدينة الجزائر التي وصلها يوم الاثنين 09 صفر 1157هـ/ 12 مارس 1744م،[4] وقد دامت رحلته أزيد من سنة وغرضها علمي أكثر منه تجاري، وقد كتبها نثرا تتخللها بعض القصائد الشعرية والمقامات من إنشائه.

أما رحلة أبو راس المسماة "**فتح الإلـه**" فهي تسجيل لرحلتيه نحو بلاد الحجاز بفارق زمني يزيد عن عشرين سنة كما سبق ذكره، بالإضافة إلى رحلته إلى المغرب الأقصى بعد عودته من الحج أول مرة،[5] وقد كتب رحلته نثرا تتخللها بعض القصائد الشعرية من مختلف العصور أو من وحيه.

1- بكاري عبد القادر، المرجع السابق، ص. 222

2-أبو راس الناصري، فتح الإله في التحدث...، المصدر السابق، ص. 16

3- أبو راس الناصري، المصدر نفسه، ص. 91

4-ابن حمادوش، المصدر السابق، ص. 99

5- أبو راس الناصري، المصدر نفسه، ص. 24

تنوعت وتعددت موضوعات رحلتي ابن حمادوش وأبي راس الناصري ويمكن تصنيفها حسب الخصائص التالية:

1- الجانب الجغرافي:

يظهر الجانب الجغرافي عند ابن حمادوش وأبي راس الناصري في وصف المدن والأمصار وتحديد مواقعها والمسافات التي تفصل بينها، كما تناولا المسالك والممرات التي عبروها، ومن هنا ساهمت هذه الرحلات في رسم الخرائط القديمة[1].

انطلق ابن حمادوش رأسا من مدينة الجزائر وركب البحر، وصل إلى مضيق جبل طارق بعد عشرة أيام، ذاكر اليوم والساعة والتاريخ الإسلامي والمسيحي وأحيانا أخرى الإسكندري عند دخوله أو خروجه من كل مدينة زارها؛ فقد بدأ تسجيل رحلته في: "مبدؤه من أول ليلة الاثنين فاتح عام 1156عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهور سنة 1743مسيحية وخامس شهور سنة 2054 اسكندرية"[2]، وذكر أنه دخل تطوان يوم الأحد 20 فيفري من نفس السنة وخرج منها في 18 صفر 1156هـ/2 أفريل 1743م ووصل إلى مكناس في26 صفر 1156هـ الموافق ل10 أفريل 1743م، ثم سافر إلى فاس دخلها يوم الجمعة 9 ربيع الأول،1156هـ الموافق ل22 أفريل 1743م.

بيّن ابن حمادوش المسافات بين المدن بالأيام، وسجل كل قام به من أعمال ما صادفه وشاهدته عينيه؛ من القرى والوديان التي مر بها والجبال وأغرب الأشجار وأسماء القبائل وعاداتهم وأغرب الطيور والحيوانات،[3]

أما أبو راس فقد سلك خلال رحلتيه إلى الحج- وكانت الأولى سنة 1204هـ/ 1791م والثانية في عام 1226هـ/1813م-، نفس الطريق البري إلى تونس ومن هناك ركب البحر إلى مصر ثم ركب إلى ينبع ومنها إلى مكة المكرمة فالمدينة المنورة[4]، حيث ذكر جميع المناطق والأماكن والمدن التي زارها أو مر بها مثل: قسنطينة، تونس، فاس، مصر كما سجل أنه زار بلاد الشام حيث دخل دمشق والرملة وغزة والعريش.[5] وأشاد بمكانة

1- حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص.26

2- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص.29

3- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص، ص. 71، 72، 98.

4 -حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص. 25

5- أبو راس الناصري، فتح الاله ..، المصدر السابق، ص. 27

بمكانة تلك الحواضر العلمية الكبرى وأبرز دورها في نشر العلم والتقي بأكابر علمائها وأشهرهم، لكنه كان مهملا لتواريخ دخوله أو خروجه من المدن أو التقائه بالعلماء إلا نادرا فقد سجل تاريخ بداية رحلته الأولى للحج واكتفى فيها بذكر السنة وهي 1204هـ[1]، وأهمل التحديد الزماني لباقي الأحداث واللقاءات.

2- **وصف العمران:**

احتل وصف المدن والقرى والحدائق والفنادق مكانا بارزا في رحلة ابن حمادوش حيث تكلم عن كل المدن والقرى التي زارها كتطوان ومكناس وفاس وذكر أهم فنادقها ومساجدها وحتى مقابرها، كما وصف قرية القصر الواقعة وقال عنها:" **فليس يسكنها حر مهدمة البناء نائية الماء ومع أنها كبيرة المنشأ قليلة الممشا عددت بها ثلاث عشرة صومعة سوداءات كان لبنها موضوعة**"[2].

كما وصف أبو راس المراكز العلمية ذات الإشعاع العلمي والثقافي كمدينة مازونة وذكر تاريخ تأسيسها وقال:" مدينة مغراوة بناها منديل بن عبد الرحمن منهم أول القرن السادس." وقال عن تونس التي هي أول محطة في طريق إلى المشرق: "**انها أم البلاد ومثوى الطارق، والتلاد**" [3]: ولما وصل إلى مصر زار القاهرة وقصد الأزهر الشريف والفسطاط وجامع ابن طولون والأهرام ومسجد الحسين والتقى بكبار علمائها، وقال عنها: "**ذات العمارة الهامية كأمواج البحور الطامية، وذات العلوم الزاهرة بالأزهر، والعساكر القاهرة بالقلعة والمزهر والفسطاط، ومشهد الإمام، وجامع ابن طولون، والأهرام، والحسنين الشرفاء الحنفاء، والملوك والخلفاء، لقي بها العلماء الكبار، أهل العلم والأدب.**"[4]

كما وصف أهم المعالم الأثرية بفلسطين كضريح سيدنا داوود عليه السلام وصخرة القبة وزوار الأماكن المقدسة من النصارى وقال عنهم : **أجناس النصارى مقبلين على العبادة،**

1-أبو راس الناصري، فتح الاله ... المصدر نفسه، ص. 24.

2- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص.72

3-أبو راس الناصري، فتح الاله ... المصدر السابق، ص-ص.108-109

4-أبو راس الناصري، فتح الاله ...، المصدر نفسه، ص. 115

أحبارا ورهباناً وقسيسين، رجالا ونساء، يأتون إليها من سائر الأقطار، بالليل والنهار، معهم هدايا لا توصف أنواعها، ولا ينقطعون أبداً ما دنا وما قصا"[1].

3- الحياة الاجتماعية:

تكلم ابن حمادوش عن بعض الأخلاق والعادات والاحتفالات وأنواع من الملابس والأطعمة المنتشرة بين سكان وقبائل المناطق إلى زارها بالمغرب الأقصى، فمن مدينة مكناس نقل صورة حية عن الفساد الاجتماعي والمتمثل في انتشار بنات اللهو بالفنادق، وسجل عن أهل فاس أنهم يعظمون الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بالذبائح وغيرها ويقومون الاحتفالات بالطبالين والمنشدين وآلات الطرب ويحملون الشموع مختلفة الألوان[2].

كما وصف طعام العامة بفاس وقال إنه هشيم الظأن بالقرفة والكسكس ، وقال عن رجالهم أنهم لا يتعممون إلا القليل وأن نساءهم لهم عمائم كبيرة من حرير طولها ثمانية عشر ذراع ولونها أبيض أو نصفه لون الزبيبي أو عكري وبالشاش الهندي أو بالشقة الجيدة المصري. أما أقبح عادة في أهل المغرب فيقول عنهم: " إن أقبح ما في المغرب كله حماماتهم لأنهم يبدون عوارتهم فيها."[3]

أما أبو راس فقد نقل إلينا في رحلته صورة صادقة عن الفقر والمعاناة التي كان يعيشها المجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني في الأرياف، وخاصة الأطفال اليتم كحالته، فإذا كان ابن حمادوش من أسرة غنية تكفلت بمصارف تعليمه فان أبا راس اشتغل وهو صبي صغير أحقر المهن كالفلي والتسول ليتمكن من حضور حلقات الدروس، وهذا يوضح غياب الس لطات العثمانية الحاكمة عن التضامن الاجتماعي وإهمالها لمجال التعليم والثقافة. تحدث أبو راس أيضا عن العادات السيئة التي انتشرت بين أفراد المجتمع في تلك فترة كشرب القهوة والدخان والتي كانت تثير جدلا كبيرا بين الفقهاء.

4- الجانب السياسي والاقتصادي:

أعطى ابن حمادوش صورة واضحة حول الأوضاع السياسية بالمغرب الأقصى فقد كان شاهدا عيانا للفتنة الداخلية التي حدثت بسبب تمرد عبد الله الريفي حاكم تطوان وخروجه

1- أبو راس الناصري، فتح الاله ...، المصدر السابق، ص. 119

2-ابن حمادوش، المصدر السابق، ص-ص. 79 ،84

3-ابن حمادوش، المصدر نفسه، ص.94

على المولى عبد الله سلطان المغرب وقد سجل أحداثها من البداية ونهايتها التي كانت بمقتل الريفي كما أحصى خسائرها أكثر من 4 آلاف قتيل، وقال إن هذه الثورة تسببت في نشر الرعب وغلاء الأسعار[1].

تحدث أبو راس في رحلته عن ثورة درقاوة التي وقعت بالغرب الجزائر ونعتها بالفتنة دون إن يضيف شيء آخر عنها بالرغم من الحيز الجغرافي والزماني الذي شغلته[2]، وفي رحلته إلى المغرب الأقصى سأله سلطانه المولى سليمان عن الحدود بين الجزائر والمغرب فأجابه معتمدا على رأي ابن خلدون وقال: "وجده، وجدد ذلك الحد أول القرن الثاني عشر مع جدك السلطان المولى إسماعيل وأتراك الجزائر"، فخالفه السلطان وقال له بل "وادي تافنة" هو الحد الفاصل بين البلدين فسكت أبو راس خوفا على نفسه.[3] وفي رحلته الثانية إلى الحجاز التقى مع علماء الحركة الوهابية وقال عنهم:" وفي الحجاز لقيت علماء الوهابية وهم تسعة أكابر أفضلهم الشيخ على فوقع لي معهم مناظرة ومباحثة واعتراضات وسؤالات وأجوبة." فاعتبرهم خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع وأما في العقائد فهم على مذهب الإمام أحمد ابن حمبل[4]. دون أن يكفرهم فحسب محمد غالم فان أبا راس عالم متسامح لا يكفر حتى المتصوفة الذين أدّعوا الألوهية. [5]

وعن الأوضاع الاقتصادية ذكر ابن حمادوش قيمة الرسوم الجمركية على السلع المستوردة وطريقة تحصيلها ومكان إيداعها(دار العشر)، وأخبرنا كذلك عن السلع الموردة من الجزائر إلى المغرب[6]، وذكر كذلك أسعار كراء الغرف في الفنادق بالمدن التي زارها كما أعطانا فكرة حول العملة السائدة بمدن المغرب وكانت غير موحدة فقد ذكر بتطوان سعر

1-المصدر نفسه، ص، ص. 76 ،77 ،80 ،92 ،93 ،95

2-لمزيد من معلومات حول ثورة درقاوة ينظر: مسلم بن عبد القادر الوهراني، أنيس الغريب والمسافر، ذخائر المغرب العربي، تاريخ البايات المتأخر، تحقيق، وتقديم، رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974.خصص فصلا كاملا حول هذه الثورة.

3-أبو راس الناصري، فتح الاله ...، المصدر السابق، ص. 107

4-أبو راس الناصري، فتح الاله...، المصدر نفسه، ص. 119

5-أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص. 22 ،24

6-ابن حمادوش ، المصدر السابق، ص.31 ،32

كراء الغرفة ستة عشر موزونة في كل شهر[1]، أما بفاس فقد قام بكراء غرفة بستة فلوس لليوم[2]. كما ذكر المثقال المغربي[3] وأوقية فضة[4]، في حين أهمل أبو راس الجانب الاقتصادي في رحلته فلم يشر إلى الأسعار والعملة ولا إلى الأجور والسلع أو غيرها.

ب- **الجانب العلمي:**

يطغى الجانب العلمي على رحلة ابن حمادوش فعلى الرغم أن رحلته كانت بهدف التجارة إلا أنه قليلا ما أشار إليها، وكان جل اهتمامه منصبا على لقاء أشهر العلماء في المدن التي زارها بالمغرب وحضور الدروس في مختلف العلوم وقراءة الكتب نسخها وتلخيصها وإضافة الحواشي عليها واقتناء التآليف النادرة، وقد سجل ذلك في مكانه وزمانه؛ حيث التقى في تطوان **الشيخ امحمد البناني الفاسي** وأجازه في قراءة " **مختصر خليل**" في الفقه و"صحيح البخاري"، "**صغرى السنوسي**" في التوحيد، وحضر دروس **بالشيخ أحمد الورززي** في الفقه والعقيدة والحديث وأجازه أيضا، وبحث عن عالم في العلوم العقلية فلم يجده[5] .

في مكناس التقى **بالشيخ عبد القادر الفاسي** وأخذ منه تآليف كثيرة في علم الفلك قرأها ونسخها، وفي فاس التقى **بالحكيم عبد الوهاب أدراق** طبيب سلطان المغرب المولي إسماعيل وأولاده قرأ عليه وأجازه، والتقى كذلك بالعالم الكبير **الشيخ ابن المبارك** الذي قال عنه: "ولما دخلت فاس لقيت بها رجلا من خيّار الناس قد جمع العمل والحلم وبرع في جميع فنون العلم تابعا لمنهاج الحق وعليه سالك الشيخ الفاضل والعالم الكامل سيدي احمد بن مبارك." قرأ عليه **مختصر السنوسي في المنطق** وأجازه[6].

1-الموزونة هي عملة نحاسية كانت متداولة في ايالة الجزائر لمزيد من المعلومات ينظر: نادية فتيسي، أوضاع الجزائر من عهد محمد بن عثمان باشا إلى غاية عهد حسين باشا،- الأوضاع السياسية والاقتصادية نموذجا-، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة 8 ماي 1945-قالمة 2018/2017، ص-ص.281-282 /ابن حمادوش ، المصدر نفسه، ص.32

2-ابن حمادوش ، المصدر نفسه، ص78

3-هي العملة الذهبية في المغرب الأقصى ويقابله السلطاني في ايالة الجزائر

4- ابن حمادوش ، المصدر السابق، ص.98

5-ابن حمادوش، المصدر نفسه، ص-ص. 32-37

6 -المصدر نفسه، ص،ص.78،81،83

وعند عودته إلى تطوان قبل سفره إلى الجزائر اعتكف على التأليف ونسخ الكتب في الفلك والرياضيات فقد نسخ "**شرح البوعقيلي على روضة الأزهار**"، **وألفية العراقي** في السيرة، وألف "**الروزنامة**"و"**الدرر على المختصر للسنوسي**" في المنطق، واقتنى العديد من الكتب منها كتاب **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** للقاضي عياض و**مقامات الحريري** وغيرها في الفقه والأدب.[1]

اهتم أبو راس في رحلته بالدرجة الأولى بالموضوعات العلمية وما يتصل بها فقد سجل في سيرته العلمية والفكرية من الطفولة إلى الشيخوخة، كل العلماء والشيوخ الذين درّسوه وأجازوه والتقى بهم وقد بلغ عددهم خمسين شيخا وعالما داخل الوطن وخارجه حسب ما جاء في كتابه **فتح الإله**؛ بداية من فقهاء الراشدية ومعسكر ومازونة والجزائر ثم المغرب وتونس ومصر الحجاز وكلهم أجازوه فضلا عمن لقيّهم في أسفاره في تلك الأقطار وناقشهم وأخذوا عنهم وأخذ عنه وشهدوا له بالفضل ورسخوه في العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية[2]، وكان حريصا على تسجيل أسماء العلماء وكل ما دار بينه وبينهم من أبحاث مسائل، معتمدا على حافظته القوية التي ساعدته على تسجيل ما قد يفوت غيره من الأماكن التي زارها والقضايا التي تجادل فيها[3].

من خلال رحلته قدم لنا صورة واضحة عن النشاط العلمي والفكري في عصره بالمراكز العلمية في المغرب والمشرق العربي وأشهر العلماء والشيوخ وأهم مستحدثات الأمور الفقهية والسياسية حيث تحدث عن علماء الحركة الوهابية وقضية شرب القهوة والدخان.

يكن أبو راس احتراما كبيرا لشيوخه قال في حقهم :"**والدي سبب حياتي الفانية وشيخي سبب حياتي الباقية**".[4]فترجم لكل واحد منهم حسب اختصاصه وتفوقه خاصة من تأثر بهم كالشيخ **المشرفي** والشيخ **السنوسي** والشيخ **مرتضى الزبيدي** المصري والشيخ **الأمير** ورثاهم بقصائد مطولة بعد وفاتهم وشهد لهم بالعلم الأخلاق الفاضلة، ولم يتحدث في رحلته إلى المشرق والمغرب إلا ما يرتبط بالعلم، فالمناظرات التي يعقدها مع العلماء يبين فيها دائما

1- لمصدر نفسه، ص،ص،69 ،71 ،83

2- محمد المهدي بن علي شغيب، المرجع السابق، ص. 199

3 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص. 379

4- أبو راس الناصري، فتح الإله ...، المصدر السابق، ص. 42

مدى تفوقه على باقي العلماء الذين يعترفون له بسعة علمه وقوة حافظته، لذلك لقبوه بالحافظ في تونس ومدينة الجزائر ومصر والحجاز.

ثالثا- الخاتمة:

إن المتأني في قراءة رحلتي ابن حمادوش وأبو راس الناصري يلمس بينهما العديد من النقاط المشتركة :

1- كلاهما قدم تأليف نادرا فأدب الرحلة يعود إلى القرن الثاني عشر هجري الثامن عشر ميلادي، ويعتبران من أهم المصادر لا يستغني عنمها الباحث في التاريخ والجغرافية والأدب للمغرب الأقصى وايالة الجزائر خلال تلك الفترة، فابن حمادوش قدم لنا معلومات قيّمة ومتنوعة الموضوعات عن الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ووصف لنا الطرق والممرات والمباني والعمران، ملتزما بالتحديد الزماني والمكاني لكل عملا يقوم أو عالما يلتقى به، ذلك لأنه عالم لفلك متميز عن باقي علماء عصره.

2- تكتسي رحلتي ابن حمادوش وأبو راس الناصر قيمة علمية وأدبية ودينية فكلاهما عرفتنا بأشهر العلماء والتآليف في تلك الفترة وطريقة الحصول على الإجازات، وقدم ابن حمادوش نموذجا منها، وعرفنا ابو راس في رحلته بسيرته الذاتية وحياته العلمية والفكرية وأشهر علماء عصره في المغرب والمشرق وسجل مناظراته والمسائل الفقهية المستحدثة في تلك الفترة والأحكام فيها، أما القيمة الأدبية فتتمثل في أسلوب كتابة الرحلتين والمتنوع بين النثر والشعر والمقامات.

3- أعطى أبو راس مثالا وقدوة حسنة لكل طالب وباحث في مواجهة الصعوبات والتضحية من أجل العلم وحب الشيوخ وتقدير العلماء، فقد عمل وهو صبي ليتمكن من الجلوس في حلقات الدرس، وأعطى مثالا آخر للأستاذ المجد الذي لا يتأخر عن طلابه ليوم واحد لمدة 36 سنة ويلقي دروسه ارتجاليا دون سند، إلا انه كان مهملا في التحديد الزماني للأحداث ولقاء العلماء وفي ذكر الجوانب الاقتصادية والسياسية إلا نادرا.

4- ضرب ابن حمادوش كذلك أروع الأمثلة في حب العلم والتضحية فكان لا يدخر جهدا ولا مالا من أجل الحصول على الكتب التي يحتاجها إما اقتناءً أو نسخا. فقد أنسته فرحته بالإجازات والكتب التي حملها معه من المغرب عن خسارته في تجارته، مما يدل على شغفه وتقديسه للعلم.

5- ثقافة العالمان موسوعية في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ ويزيد ابن حمادوش عن أبي راس بتخصصه في علوم الفلك والطب والصيدلة وعلم التوقيت والحساب والمنطق، وقد اهتم الأوربيون بالعالمين قبل الجزائريين منذ زمن طويل ونشروا أعمالهما وترجموها إلى الفرنسية كمؤلفات ابن حمادوش الطبية والتاريخية وكذا المؤلفات التاريخية لأبي راس الناصري.

رابعا- البيبليوغرافيا:

1- المصادر:

1. أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق وتقديم: محمد غالم، منشورات المركز الوطني للبحث في الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005.

2. أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

3. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، تحقيق، أ. م. كاتر مير، المجلد3، مكتبة لبنان، بيروت، 1992.

4. عبد الرزاق ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش المسماة:" لسان المقال في النّبأ عن النّسب والحَسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 .

5. مسلم بن عبد القادر الوهراني، أنيس الغريب والمسافر، ذخائر المغرب العربي، تاريخ البايات المتأخر، تحقيق، وتقديم، رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974.

2- المراجع:

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- سميرة انساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى ، الجزائر، 2010.
- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، دار المعارف، مصر، 1975 .
- محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ قسنطينة)، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر،1980م.
- مصطفى مهروس، المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، مطبعة فضالة، المغرب، 1997.

3- الرسائل الجامعية:

1. نادية فتيسي، أوضاع الجزائر من عهد محمد بن عثمان باشا إلى غاية عهد حسين باشا،- الأوضاع السياسية والاقتصادية نموذجا-، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة 8 ماي 1945-قالمة 2018/2017.

4- المقالات:

1. بكاري عبد القادر، الرحلة ودورها في التدوين التاريخي الجزائري، رحلة أبو راس الناصري نموذجا.مجلة عصور الجديدة، العدد 19-20، جامعة وهران، 2015.

2. حنيفي هيلايلي، الجزائريون والرحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورتلاني وأبو راس الناصري، مجلة الشهاب الجديدة، مجلد7، العدد7، السنة 7، جامعة سيدي بلعباس، 2008.

5- الموقع:

1. **عبد** القادر فاكايري، عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بـ"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، موقع بن باديس، الاثنين28 مايو، 2018، **https://binbadis.net/archives/7466**

6- المراجع بالفرنسية

1. Gabriel,Colin, A.bderrezaq El-jezairi, un médecin arabe du XII siècle de l'Algérie, Imprimerie Delord.(-Boehm et martial éditeurs du Montpellier médical, Montpellier, 1905.